المورفيمات المقيدة ونشأتها في اللغة العربية

المدرس المساعد
حيدر عبد الكاظم أحمد الدباغ
مديرية تربية النجف الأشرف
haidaraldabaagh@gmail.com

The Genesis of Morpheme in Arabic language

Assistant Lecturer
Haider Abdul Kadhim Ahmed Al-Dabbagh
Najaf Education Directorate

الملخص:-

المورفيمات المقيدة أصوات ملحقة بألفاظ اللغة العربية تحمل معاني صرفية ونحوية، فمن أين أتت هذه المورفيمات للغة؟ وكيف كان الأعراب يتحدثون بها وبطلاقة دون قواعد؟ علماً إنها من الصعوبة بمكان لا يأمن معه الخطأ، فرجح البحث أنها توقيفية من الله (عز وجل) أعطاها للعرب، وألهمهم الحفاظ عليها لتكون وعاء للقرآن الكريم، وتواضع العرب على المفردات الجديدة فيما بعد، لكن بالمقاييس التي أوقفها الله لمدّة من الزمن، حتى نزل القرآن واستقرت الفاظه عند الناس.

الكلمات المفتاحية: المورفيمات، المقيدة، أصوات، اللغة، الأعراب.

Abstract:

Bound morphemes are sounds attached to Arabic language words that carry morphological and grammatical meanings .Where did these language morphemes come from? How did the Bedouins speak it fluently and without knowing grammatical rules? knowing that it is so difficult that not to make mistakes .The research suggested that it was endowment from God. He gave it to the Arabs, and inspired them to preserve it so that it would be a container for the Holy Qur'an .The Arabs are accustomed to the new vocabulary later on, but according to standards Which God endowed for a period of time, until the Qur'an was revealed and its pronunciation became stable among the people.

Key words: morphemes, Genesis, sounds, language, the Bedouins

المقدمة:

في اللغة العربية أصوات تأتي مع المفردات قد تكون سابقة لها مثل حروف المضارعة (أنيت) أو لاحقة لها مثل الحركات الإعرابية أو مقاطع التثنية والجمع، وهذه الأصوات أطلق عليها في المصطلح الحديث أسم (المورفيمات)، فجاء البحث لمعرفة من أين جاءت هذه المورفيمات؟ وكيف تحدث بها العرب الأوائل على سجيتهم من دون وجود درس نحوي، وبطلاقة مع عدم الخطأ؟ فتمحور البحث للرد على هذا التساؤل.

جاء البحث على مبحثين يسبقهما تمهيد بعد هذه المقدمة وتتبعهما خاتمة وهوامش البحث مع ثبت للمصادر والمراجع، بينت في التمهيد اشكالية البحث، أو التساؤل الذي يحاول البحث الإجابة عنه. وجاء المبحث الأول تحت عنوان (المورفيم تعريفه وأنواعه)، الذي بينت فيه تعريف المورفيم، وأنواع المورفيم وكيف ظهرت هذه المورفيمات في اللغات مما جرّنا إلى التطرق إلى نظريات نشأة اللغة.

أما المبحث الثاني فجاء تحت عنوان: (نشأة المورفيمات المقيدة في اللغة العربية)، مع ذكر أهم الآراء حول ظهورها، ثم جاءت الخاتمة التي تحمل نتيجة ما توصل إليه البحث، ومن بعدها قائمة بهوامش البحث، ثم ثبت المصادر والمراجع، سائلا من الله العزيز الكريم أن يمنحني التوفيق والسداد في القول والعمل إنه نعم المولى ونعم النصير.

تمهيد:

قد يسأل سائل: لماذا العرب ترفع وتنصب وتجر المفردات من دون تعلّم؟ ولماذا العرب قبل نزول القرآن كانت تستعمل الحركات في لغتها كلغة يومية متداولة بين الناس، يتوارثها الصغار عن الكبار؟ فمثلاً لابد من سبب دفع العرب إلى رفع المبتدأ والفاعل واسم كان، ونصب المفعول به واسم إنّ والتمييز، حتى أصبح للحركات دور في فهم المقاصد، وأصبحت العرب تعرف فاعل الفعل ومن وقع عليه الفعل من هذه الحركات.

فلو أخذنا لفظة رجلين ـ على سبيل المثال ـ في الرفع والنصب، نجد في نهاية المفردة هذه الإضافة (ان) أو (ين)، التي تسمى في علم اللغة الوصفي الحديث مصطلح (المورفيم) Morpheme، وهو مصطلح مفضّل عند المحدثين على المصطلحات التقليدية مثل النهايات التصريفية والجذر والأصل(١).

يرى (بلومفيلد) رائد المدرسة السلوكية في أمريكا أنّ المعنى له دور في ظهور هذه المرفيمات مع المفردات؛ إذ يقول: (الموقف أو المقام الذي يقوم فيه المتكلم بقول كلمة أو جملة ورد الفعل والاستجابة التي يتطلبها ذلك مع المستمع)(٢)، وهذا تفسير متأثر إلى حد كبير بالمذهب السلوكي في علم النفس، فلفظة (رجلان) في اسم (كان) هي نفسها تكون (رجلين) إذا كانت اسم (إنّ)، فلماذا هذا الإختلاف في الصيغة؟ وما الضير إذا كانت مرفوعة أو منصوبة؟

الصوت الملحق بالاسم أو الفعل يسمى (مورفيم) وهذا ما يمثله المقطع (ون)، و (ين) في المثنى كما في المثال السابق، وعليه السؤال المطروح هو ما المورفيم؟ أو ما تعريف المورفيم؟

المبحث الأول

المورفيم تعريفه وأنواعه

أولاً: تعريف المورفيم:

عُرّف (المورفيم على أنه أصغر وحدة لغوية ذات معنى)[٣]، والمورفيم فكرة قائمة على تحديد العناصر اللغوية على وفق وظائفها النحوية والصرفية والدلالية. ففي اللغة العربية مثلاً نستطيع أن ندرك من قولنا: كتب كتبتُ يكتب يكتبون اكتب اكتبي كاتب ـ كاتبة كاتبون كاتبات... الخ، إنّ هذه الكلمات متصلة بعنصر مشترك بينها جميعاً هو الجذر (ك ت ب)، ونستطيع أيضاً أن نميّز عناصر أخرى تحدد كون الكلمة اسما أو فعلا، أو مذكرا أو مؤنثا، أو مفردا أو مثنًى أو جمعا، ومن حيث الشخص متكلم أو مخاطب أو غائب، وهذه العناصر عبارة عن مورفيمات، فالمورفيم الذي يحدد (اكتب) مسند إلى المتكلم هو المقطع (أ) وفي يكتب نجد المورفيم(ي) عبارة عن مقطع أيضاً يقع في أول الكلمة، أي سابقة (Prifex) وهو يحدد أيضاً أنّ الفعل المسند إلى المفرد أو الجماعة أو المخاطب، كما في نكتب، أو أكتب، أو تكتب. ونجد في كلمة (يكتبون) ايضاً المورفيم (ون) يدل على أنّ فعل الكتابة واقع من جماعة الذكور، وهو لاحقة Suffex فضلاً عن أن النون مورفيم دال على علاقة هذا الفعل بغيره من العناصر الداخلة في التركيب، والواو هو مورفيم آخر يدل على الفاعلين[٤]، هذا بالنسبة للأفعال، أما بالنسبة للأسماء فإنها أيضا تتكون من الجذر نفسه، إذ تشتق أسماء تحدد أسميتها مورفيمات معينة، ففي كلمة كاتب نجد أن الألف وكسرة التاء مورفيم يتكون منه اسم الفاعل من الثلاثي، أما التنوين فهو عنصر صوتي يلحق آخر الاسم ليدل على التنكير في مقابل الكاتب الذي يدل المورفيم (أل) على أنه معرفة، أما كاتبة فتحوي على مورفيمين هما فتحة الباء والمقطع (تن) كما أن كاتب وكاتبة من حيث العدد هما مفرد يقابلهما كاتبان وكاتبتان بزيادة واو ونون، وكاتبات بزيادة ألف وتاء، وكاتبون بزيادة واو ونون.

وقد ترتب على هذا المفهوم طبيعة المورفيم وأشكاله وأنواعه ودوره في بيان الوظائف الصرفية والنحوية، وإن اختلف مفهوم أقسام الكلام التي تدخل فيها وبناءً على ذلك كان التحليل إلى المكونات المباشرة هو المنهج الذي اعتمد عليه بلومفيلد أولاً، ثم تلامذته من بعده، حيث بلغ هذا المنهج التحليلي أوجه مع نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين[٥].

ثانياً: أنواع المورفيم:

للمورفيم أنواع لدى المحدثين [٦]:

الأول: وهو الأغلب أن يكون عنصرا صوتيا، وهذا العنصر الصوتي قد يكون صوتًا واحدًا كالضمة أو الحركة عموماً، وحرف العلة والتنوين، أو مقطعاً ـ مورفيم المقطع الواحد ـ نحو: (ما، من، عن) أو عدة مقاطع نحو (الهمزة والسين والتاء) الدالة على الطلب في استخرج وفي استغفر.

والثاني: أن يكون المورفيم من طبيعة العناصر الصوتية المعبرة عن (المعنى) أو (التصور) أو (الماهية)، أو من ترتيبها.

والثالث: من (المورفيم) هو الموضع الذي يحتله من الجملة كل عنصر من العناصر الدالة على المعنى.

ولكن أكثر المحدثين يرون أن المورفيمات على نوعين: المورفيم الحر والمورفيم المقيد[٧].

١ ـ المورفيم الحر:

هو المورفيم الذي يمكن استعماله بحرية كوحدة مستقلة في اللغة مثل: رجل، نام، كبير، إلى، فوق ... الخ [٨].

وعرفه عبد الرحمن أيوب بقوله: (تعريف الشكل الذي يمكن أن يكون قولاً كاملاً يسمى حراً والذي ليس حراً يسمى (مقيداً) وعلى هذا فالأشكال (كتاب) و(رجل) من الأشكال الحرة أما (ون) من (مؤمنون) أو (ات) من (مؤمنات) ضمن الأشكال المقيدة)[٩].

٢- المورفيم المقيد:

وهو الذي لا يمكن استخدامه منفردًا، بل يجب ان يتصل بمورفيم حرّ، وأمثلة هذا النوع الألف والنون للدلالة على معنى المثنى، كما في كلمة (مدرسانِ)، والواو والنون: للدلالة على معنى الجمع والتذكير، كما في كلمة (مدرسونَ)، والتاء المربوطة: للدلالة على معنى التأنيث، كما في كلمة (مدرّسة)، الألف والتاء: للدلالة على معنى التأنيث والجمع، كما في كلمة (مدرسات)، وغيرها كثير في اللّغة العربية[١٠].

ثالثاً: كيف ظهرت المورفيمات المقيدة؟

هذه المورفيمات المقيدة التي تتصل بالمفردات هل ظهرت في اللغة العربية بشكل تدريجي ام بشكل مفاجئ؟ لا أحد يعلم،، ومن المؤكد أنّ هذه المورفيمات ظهرت مع ظهور اللغة، وقد عرّف ابن جني (ت٣٩٢هـ) اللغة بقوله: ((حدّ اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم))[١١]، فاللغة أصوات يستفيد منها الإنسان في التعبير عن أغراضه، وهذه المورفيمات في اللغة العربية تحمل معاني نحوية وصرفية لحقت بمفردات اللغة العربية أطلق عليها العلماء مصطلح (الإعراب)[١٢]، وقد عملت هذه المورفيمات على اختصار اللغة حتى أصبح يعرف الفاعل والمفعول به من هذه المورفيمات، كقولك (كرّم المعلمان الطالبين) مما جعل اللغة العربية تعطي أكبر المعاني بأقل الألفاظ، وبما ان هذه المورفيمات نشأت مع نشوء اللغة أصبح لابدّ من معرفة أهم نظريات نشأة اللغة، التي تمثل باختصار[١٣]:

١- نظرية الإلهام والوحي والتوقيف:

وهي النظرية الأقرب إلى الصحة التي تسندها الدلائل النقلية والعقلية، فمن حيث النقل نجد القرآن الكريم يصرح بأنّ اللغة والألفاظ من الله الخالق، بدلالة قوله تعالى: **[وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا]**[١٤]، وهذا ما نقله ابن جنّي نقلاً عن الأخفش[١٥]، فهو ـ الله ـ خلق الإنسان وألهمه القدرة على الحديث، وهذا شيء لا يختلف عليه اثنان، وبالتالي هذه المورفيمات نشأت وبألهام من الله مع اللغة عند العرب تمهيداً لأمر خطير ورسالة عالمية تحتاج إلى لغة متينة غير ركيكة تحمل أكبر المعاني بأقل المفردات، يمكنها أن تكون وعاءاً للإعجاز الإلهي.

٢ نظرية محاكاة أصوات الطبيعة [١٦]:

قد تكون هذه النظرية معقولة عند الإنسان القديم (إنسان الكهوف)، الذي كان لا يعقل شيء من الطبيعة، فيسمي الأشياء بأصواتها الطبيعية مثل خرير الماء، وهذه النظرية لا تصمد أمام النقد إذا قلنا (ما علاقة الكتاب بالصوت؟) حتى أنّه لا صوت فيه، وهناك كثير من المفردات التي لا صوت لها (ابيض أسود)، لذا نجد أنّ هذه النظرية قد أغلقت تماماً لأنها غير علمية.

٣ نظرية الاتفاق والمواضعة واصطلاح:

ملخص هذه النظرية أنّ هناك اتفاقاً حدث بين الناس حول الألفاظ والمصطلحات حتى يتسنى لكل فرد منهم فهم الآخر، وليس لهذه النظرية أي دليل نقلي؛ فهكذا اجتماع يجب أن يكون معروفاً عند الناس وليس سرًا، فضلا عن ذلك لا بدّ من أن يجتمع علّية القوم للإتفاق على المفردات الجديدة مثل(مجمع اللغة العربية) في وقتنا الحاضر، وهذا الشيء غير موجود تأريخيًّا ولم ينبأنا التأريخ بذلك، فضلاً عن إنه لا يستقيم عقلاً؛ لأن الأشخاص الذين تواضعوا واتفقوا على المفردات يجب أن تكون لهم لغة يتحدثون بها، ومن ثمّ تكون اللغة قد سبقت المواضعة، وهنا أصبحت المواضعة شيئا تاليا للّغة.

المبحث الثاني

نشأة المورفيمات المقيدة في اللغة العربية

بعد أن ألمحنا وبشكل سريع لنظريات نشأة اللغة نعود إلى موضوع المورفيمات في اللغة العربية، فاللغة العربية التي بين أيدينا ـ على أغلب الروايات ـ هي لغة أهل الحجاز، إذ لم يستشهد اللغويون والنحويون القدامى بلغات أطراف الجزيرة العربية؛ لأنها أكثر احتكاكا باللغات الأجنبية، بل اقتصر الاستشهاد فقط على لغة الحجاز ولاسيما لغة قريش؛ لأنها لغة صافية تعيش في قلب الصحراء ليس فيها الغريب من اللغة، فقد كان لتلك العزلة نتائج حسنة في محافظة اللغة العربية على ظاهرة الإعراب الكامل، ومناسبة حروفها لمعانيها، وثبات أصواتها مع سعة مدرجها، وتنوع صرفها واشتقاقها، وتعدد أبنيتها وصيغها، وكثرة مصادرها، وغنى مفرداتها بالاشتراك والترادف والتضاد، واستعدادها الذاتي للنحت والتوليد والتعريب، ((كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عمَّا في النفس. والذين عنهم نُقِلَتِ اللغة العربية، وبهم أُقْتُدِيَ، وعنهم أُخِذَ لسان العربي، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم))[١٧]، فهذه اللغة المعزولة في جوف الصحراء من أين حصلت على كل هذه الرشاقة والدقة؟ ومن أين حصلت على كل تلك الهيبة التي نجدها في قصائد العصر الجاهلي؟ فما وصل إلينا هو غاية في البراعة والجمال، بل نجد بعض المستشرقين يعدون هذه العزلة مزية للغة العربية فلغة قريش كانت بعيدة عن أي لغة أجنبية يمكن أن تحتك بها، لذا اختاروها لأن تكون مقياس الفصاحة في اللغة: ((اصطنع العرب لغة قريش للتفنن في القول، والإبانة في التعبير، فدلّ استصفاؤهم أياها على أنها اختارت من كلام العرب أبينه، وراعت أرشقه، واعتمدت أصفاه؛ فكان حقًّا ما ذهب إليه الباحثون من المستشرقين وغيرهم، من أن أهم مزية للعربية حفظت لها شخصيتها بين أخواتها الساميات إنما هي عزلتها عن الشعوب الأعجمية، واكتفاؤها بمقدرتها الذاتية على التعبير، وعلى التمثل والتوليد، وعلى التخير والانتقاء، في موطنها عينه، وبيئتها نفسها، وبين شقيقاتها اللهجات الفصحى التي تبادلت معها التأثر والتأثير، بينما كانت الساميات يتفرقن عن موطن السامية الأم، ويبتعدون في الوقت نفسه عن الأصالة والصفاء))[١٨].

قد تكون العزلة مفيدة للمحافظة على الألفاظ من حيث كونها أسماء وأفعالاً وحروفاً، لكن الكلام هنا حول الإعراب، ونقصد بها المورفيمات المقيدة التي تمثل علامات الرفع والنصب والجزم، والتي كانت تلفظ ولا تكتب بسبب اعتماد العرب على الحفظ أكثر من التدوين قبل الإسلام، وعليه فإن هذه المورفيمات كانت ملفوظة على السليقة من غير تدريس، أو وجود درس نحوي، فيكون السؤال كيف تولّدت هذه الملحقات الصوتية (المورفيمات) التي تستطيع أن تغير معنى الجملة؟

مثال ذلك: دخل أعرابي إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب فقال: من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على رسوله محمد (صلى الله عليه [وآله] وسلم)؟ فأقرأه رجل سورة براءة، فقال فيها: وأن الله بريء من المشركين ورسوله (قرأها بالجر)، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغت عمر مقاله الأعرابي، فدعاه، فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني؟، فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: وأن الله بريء من المشركين ورسوله فقلت: أو قد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه .فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، فقال الأعرابي: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: إنّ الله بريء من المشركين ورسولَه (قرأها بالنصب)، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممّن برأ الله ورسوله منهم، فأمر عمر حينئذ ألا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة.(١٩) فتأمل كيف انقلب معنى الجملة بسبب حركة إعراب يسيرة.

فهذا الإعرابي قد فطن إلى الفعل والفاعل من الحركة (المورفيم) التابع للفظة (رسوله) وهو الكسر؛ فحوله من فاعل قام بالتبري إلى مفعول به متبريء منه والعياذ بالله فمن أين جاءت لهذا الإعرابي هذه الفطنة وهو في جوف الصحراء؟ ومن الذي أعطى لأبيه العصمة حتى لا يخطأ في تعليم ولده اللفظ الصحيح؟

فإذا قلنا هذه المورفيمات توقيفية عندها تكون إرثاً يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد، وهي محفوظة من الله كونها وقفاً، حفظها الله ليجعلها وعاء لقرآنه، تكون نظرية معقولة كون الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: **[وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ]**(٢٠)، وجاء في تفسير معنى الألسن في هذه الآية: (وَالْأَلْسِنَةُ: جَمْعُ لِسَانٍ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى اللُّغَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى **[وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ]** (إِبْرَاهِيم: ٤) وقوله **[لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ]** (النَّحْل: ١٠٣). وَاخْتِلَافُ لُغَاتِ الْبَشَرِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ فَهُمْ مَعَ اتِّحَادِهِمْ فِي النَّوْعِ كَانَ اخْتِلَافُ لُغَاتِهِمْ آيَةً دَالَّةً عَلَى مَا كَوَّنَهُ اللَّهُ فِي غَرِيزَةِ الْبَشَرِ مِنِ اخْتِلَافِ التَّفْكِيرِ وَتَنْوِيعِ التَّصَرُّفِ فِي وَضْعِ اللُّغَاتِ، وَتَبَدُّلِ كَيْفِيَّاتِهَا بِاللَّهَجَاتِ وَالتَّخْفِيفِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ بِحَيْثُ تَتَغَيَّرُ الْأُصُولُ الْمُتَّحِدَةُ إِلَى لُغَاتٍ كَثِيرَةٍ)(٢١)، وفي المحصلة نجد الخالق سبحانه وتعالى وضع هذه اللغات المختلفة في البشر المتشابهين في الخلقة لتبيان عظمته وقدرته، وهو شيء منطقي ومعقول يعضده النص القرآني المتقدم.

أما إذا قلنا مواضعة أي أنّ هذه المورفيمات أوجدها الناس واتفقو عليها، فمن المؤكد إن المتكلم يتجه نحو التسهيل، فعمدوا إلى اللفظ البسيط السهل، وبالتالي كان للعامل الصوتي وتبسيطه أثر في هذه الألفاظ، فبداية الجملة تحتاج اللفظة إلى الرفع، والضمة في المفرد أعظم في اللفظ من الفتحة والكسرة، فعندما نقول: (المعلمُ نشيطٌ) رُفع المبتدأ والخبر، ويقابلها (المعلمون نشيطون)، فقابل فونيم (الضمة) فونيم (ون)، وهما متقاربان في النطق، لأنّ الواو ضمة طويلة، وكذلك قولنا: (إنّ المعلمَ نشيطٌ) و (إنّ المعلمَين نشيطان).

لكننا نجدها غير سهلة، وليست يسيرة حالة الاتفاق بين الناس على هذه القواعد؛ إذ لا يوجد درس نحوي أو لغوي بين الناس، وفي المقابل نجد هذه القواعد الصارمة من رفع ونصب وجر وبناء، وحذف وإثبات، وهي صعبة، وليست يسيرة، هنا نقف بدهشة أمام لغة معقدة، وناس لا يكتبون ولا يقعّدون القواعد، فضلاً عن إنهم كانوا قبائل مشتتة في البادية وغالباً ما كانوا متناحرين، فكيف اتفقوا على هذه القواعد؟ ومتى كانت نقطة البداية؟

الجواب عن هذا السؤال يجرنا إلى الإعتقاد بأن اللغة كانت توقيفية من الله بداية في نشأة القواعد، وهذا ما ذهب إليه ابن جني عندما قال: ((واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي مختلفة جهات التغول على فكري، وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه. ولطف ما أسعدوا به وفرق لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجل فقوى في نفسي اعتقاد كونها توفيقًا من الله سبحانه وأنها وحي))[٢٢]، معززاً هذا الرأي الحديث النبوي الشريف الذي يقول: ((أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة))[٢٣]، وهذا يعني إن اللغة العربية توقيفية من الله، جاءت على لسان نبيه إسماعيل A لتكون وعاءً لقرآنه الكريم وبالتالي حفظها من التغيير لفترة معينة، لحين نزول القرآن الكريم، وأجراها على لسان الناس بكل سهولة ويسر[٢٤]، بل وأصبحوا يتبارون فيها بقصائدهم ومنتدياتهم، فكانت القواعد والإعراب والصرف من الله (عز وجل) والكلمات ومستجدات الألفاظ من الناس يتعارفون عليها، وبالتالي لاغرابة

من وجود اللهجات في الجزيرة العربية.

والصحيح إنّ اللغة العربية إلهام من الله، فآدم A كانت لغته من الله (عز وجل)، وآدم أبو البشر، والمعروف أنّ اللغة في تغيير مستمر، على سبيل المثال (السومرية، والبابلية، والآشورية وغيرها) وكذلك في الجزيرة العربية العدنانية والقحطانية، إلى أن وصلت إلى زمن نبي الله إسماعيل A فأصبح قريباً من نزول القرآن لذا فتق الله ـ عزّ وجل ـ على لسانه اللغة العربية الفصيحة كما علمها لآدم من قبل؛ حتى تكون وعاءاً للقرآن الكريم، وما يحمله من إعجاز سماوي شاءت الإرادة الإلهية أن يكون خالداً إلى قيام الساعة، قال تعالى: **[الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ]**(٢٥)، والبيان هو الإفصاح والتعبير عمّا لدى الإنسان من معان بكامل الوضوح، ولا يكون هذا إلا بلغة كاملة يستطيع أن يعبّر بها الإنسان عن إغراضه(٢٦)، فالبيان تعليم من الله، واللغة أداة البيان، فلا يكون هناك بيان من دون لغة عالية.

لكن كيف تكون اللغة من الله توقيفاً وهناك بعض المفردات المستحثة في اللغة العربية تبعاً للظروف والأحداث، كالتي واكبت ظهور الإسلام مثلاً؟

يقول الدكتور حسام النعيمي: ((وقد أشار علماء اللغة العرب قديمًا إلى قيام أمرين: الإلهام أولاً ثم الإصطلاح الذي فرضته الحاجة، فقد نسب ابن جني للأخفش قاعدة عامة في نشأة اللغة، يقول الأخفش: (وكيف تصرفت الحال وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها فإنها لابدّ أن يكون وقع أول الأمر بعضها ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه مزيدًا إليها شيئًا فشيئا))(٢٧)، فالشيء المرجح من هذه النصوص إنّ اللغة بقواعدها الصارمة من رفع ونصب ومبتدأ وخبر هي من الله (عز وجل) أما مفرداتها فقد توسعت بمرور الزمن إذ دخلت مفردات جديدة بحسب الحاجة، وهنا جاءت المواضعة بين الناس إذ أصبحت متعارفة بينهم، لكن بقيت القواعد محفوظة من الله تمهيداً لنزول القرآن، وبالتالي فالمورفيمات المقيدة التي توجد في اللغة العربية، هي توقيف من الله كقاعدة ثابتة، وتوافق من الناس على المفردات والألفاظ.

يقول الدكتور أحمد البوريني: ((لقد كانت اللغة الأولى مكتملة، ولكنّها أقل عدداً في مخزون الألفاظ من لغات اليوم؛ لأنها كانت تتكون من كلمات تمثل جذور اللغة الحالية، ولمّا احتاج الإنسان إلى مزيد من الكلمات لتسمية الموضوعات والمكتشفات والأحوال الجديدة انبثق من تلك الجذور ما احتاج إليه من الكلام))(٢٨). فبقيت القواعد العامة في الإشتقاق والصرف والإعراب ثابتة توقيف من الله (عز وجل) سار عليها العرب في اللغة وما استجد من ألفاظ توافقوا عليها فيما بعد.

والدليل على ذلك بعض الأسماء المرتجلة التي ليس لها تصريف مثل كلمة (سيف) فقد تعارف عليها العرب وشاعت وهي ليس لها جذر ولا يعرف أحد أصلها، ومثلها كلمة (قلم).

الخاتمة:

فالإجابة عن التساؤل الذي طرح بداية البحث وهو من أين جاءت المورفيمات المقيدة للغة العربية؟ حتى أصبحت تتحكم بالمعاني ومقدار فهم المقاصد ومعرفة الفاعل ومن وقع عليه الفعل بألفاظ مختصرة وبأقل المفردات، بل بأصوات صغيرة ملحقة بالمفردات.

فكانت نتيجة البحث إنّ الله (عز وجل) شاء أن تكون هذه المورفيمات في اللغة العربية يتداولها الناس بشكل توقيفي على ألسنتهم، وحفظها الله من الضياع تمهيداً لنزول القرآن إذ عملت وبشكل كبير وفعّال على إعطاء أكبر المعاني بأقل المفردات، وساهمت في تفسير الآيات القرآنية، وفهم المعاني، ولولا هذه المورفيمات الصوتية لذهبت المعاني المقصودة، أمّا ما قام به الناس فهو

التوافق على المفردات الجديدة ولكن مع الحفاظ على القواعد الصرفية والنحوية الصارمة التي تحددها المورفيمات الموجودة في المفردة والتركيب، وبالتالي يرجح البحث نشأة المورفيمات الصوتية التي تخص الصرف والنحو بشكل توقيفي من الله (عز وجل)، أما باقي المفردات وخاصة المستحدثة منها فقد نشأت بالتوافق والمواضعة بين الناس، بدليل لا توجد حركات وإعراب في باقي لغات العالم، فهذه خصوصية أختصت بها لغة القرآن الكريم خصها بها الله عز وجل حتى تتمكن من إعطاء أكبر المعاني بأقل المفردات، وحتى تتمكن من حمل معجزة السماء الخالدة وهو القرآن الكريم.

هوامش البحث

(١) ظ: أسس علم اللغة: ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٣٢١.
(٣) المصدر نفسه: ٥٤
(٤) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٢٧ـ ١٢٨.
(٥) المصدر نفسه: ١٢٩
(٦) ينظر: علم اللغة ـ السعران: ٢٣٧
(٧) ـ ينظر: التعريف بعلم اللغة: ١٦٤، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٢٧٦
(٨) ـ ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٢٧٦.
(٩) اللغة والتطور: ١٠٠
(١٠) التعريف بعلم اللغة: ١٦٤ ـ ١٦٥.
(١١) الخصائص: ١ / ٣٤
(١٢) المصدر نفسه: ١ /٣٦
(١٣) ـ المصدر نفسه: ١ / ٤١
(١٤) سورة البقرة: ٣١
(١٥) ـ ينظر: الخصائص ١ / ٤١ ـ ٤٢
(١٦) ـ المصدر نفسه: ١ / ٤٧ ـ ٤٨
(١٧) دراسات في فقه اللغة: ١١٢ ـ ١١٣
(١٨) ـ المصدر نفسه: ١١٥ـ ١١٦
(١٩) ينظر: الكشاف للزمخشري: ٢ / ٢٤٥، و ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨ / ٣٧٣
(٢٠) ـ سورة الروم: ٢٢
(٢١) التحرير والتنوير: ٢١ / ٧٣
(٢٢) الخصائص: ١ / ٤٨
(٢٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته: ١ / ٥٠٤ حديث رقم: ٢٥٨١، بحار الأنوار: ٣٥ / ١٤١
(٢٤) ـ ينظر: البيان والتبيين ٣ / ١٩٣ ـ ١٩٤
(٢٥) سورة الرحمن: ١ ٤
(٢٦) ينظر: لسان العرب: ١٢ / ٤١٩ لفظة: (بان)
(٢٧) ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: ٢٧٠ ـ ٢٧٣
(٢٨) اللغة العربية أصل اللغات كلها: ٢٨

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أسس علم اللغة: ماريوباي، ترجمة: أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية، ١٩٧٢.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: نايف خرما، عالم المعرفة، ١٩٧٨.

- بحار الأنوار: العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت: ١١١١هـ)، تصحيح وتعليق محمد الباقر البهبودي، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان.
- تذكرة الحفاظ: شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٣٣ه ٢٠١٢م.
- البنيوية في اللسانيات: محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.
- البيان والتبيين: ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- التعريف بعلم اللغة: دافيد كريستل، ترجمة: حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية، مطبعة الجيزة بالاسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٧٩.
- الخصائص: أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طباعة ونشر: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والأعلام - العراق، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- دراسات في فقه اللغة: د. صبحي إبراهيم الصالح (المتوفى: ١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، ط: ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، دار العارف، بمصر، ١٩٦٢م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ٣ - ١٤٠٧ هـ.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(المتوفى: ٧١١هـ)، تحقيق: ناصيف اليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤ه.
- اللغة العربية أصل اللغات كلها: عبد الرحمن أحمد البوريني، دار الحسن للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن، ط١، ١٤١٩ ه ١٩٩٨م.
- اللغة والتطور: عبد الرحمن أيوب، مطبعة الكيلاني، ١٩٦٩.
- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٩م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.